المنهج التاريخي
في نزول القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أنزلَ على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً، الحمد الله الذي جمع القرآن وأبانه، وجعله هدى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على النبي الأمين، المرسل إلى الناس كافةً شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وبعدُ:

لعل من المفيد بداية أن نبين دواعي تأليف هذا الكتاب، وصلته بما ساهمنا في تصنيفه من قبل في كتاب «علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره»[1]، لوجود تشابه بينهما، وأن نبين الفكرة الجديدة التي أتى بها هذا الكتاب، والتي كان الكتاب الأول أساساً لها، بل وكانت من أهم مقاصده.

لقد بينا في كتاب «علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره» أن هذا العلم مبنيٌّ على الاستدلال بالنص الصريح من بعض آيات القرآن الكريم، والتي بينت طريقة نزول القرآن الكريم مفرقاً في مدةٍ زمنيةٍ طويلةٍ، متزامنةٍ مع تاريخ البعثة المحمدية من أولها إلى آخرها، وقد بينا أن فهمنا لهذه الآيات اعتمد على كتب التفسير والتأويل وكتب علوم القرآن والسنة والسنن والسيرة النبوية وغيرها، دون خلاف على تفسيرها فيما نعلم.

---

(1) صدر الكتاب عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم، تأليف الدكتور أحمد شكري وعمران نزال، تقديم ومراجعة الدكتور أحمد القضاة، عمان، الطبعة الأولى، 1423هـ ـ 2002م.

فقد أخبرنا الله تعالى في سورة الفرقان المكية عن اعتراض الذين كفروا على عدم نزول القرآن جملةً واحدةً فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

وقلنا: إن في هذه الآيات الكريمة تسجيلاً لاعتراض الذين كفروا أولاً، وجواباً على المعترضين ثانياً، وإن في الجواب إقراراً وبياناً للطريقة التي كان ينزل بها القرآن الكريم مفرقاً ثالثاً، وإنَّ في الجواب تعليلاً لهذه الطريقة التي كان ينزل بها القرآن الكريم وهو التثبيت رابعاً.

وما نلفت الأنظار إليه في بيان أوجه تعليل نزول القرآن الكريم مفرقاً، إذ في التعليل نص على مقصد التثبيت أولاً، وأن نزوله كان مرتلاً ترتيلاً ثانياً، أي مرتباً ومتتابعاً، وتنزيلاً بعد تنزيل وليس في نزولٍ واحدٍ، وهذا مستفادٌ أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، أي رتبناه منتظماً، نزولاً بعد نزولٍ وآياتٍ بعد آيات، وهذا الترتيل للآيات في السورة الواحدة كائنٌ قبل أن يكون الترتيب للقرآن الكريم كله، فلم ينزلُه دفعةً واحدةً؟ فالجواب كشف عن السبب العام لطريقة النزول، وهو التفاعل مع الواقع المكي ثم المدني، وهو معنى الآية التالية من سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، فكلما أتوك بمثلٍ جئناك بما هو الحق وبما هو أحسن تفسيراً، أي أن القرآن الكريم كان يجيب على أمثال الذين كفروا وأقوالهم، فلم يكونوا يأتون بمَثَلٍ خلال فترة نزول القرآن الكريم كله إلا ونزل الجواب من الله تعالى في وقته وزمنه وحينه، وبما يثبت الحقيقة ويزهق الباطل، بل وكان مَثَلُ القرآن أفضل وأحق من مثلهم، وأحسن تفسيراً، أي: حجةً وبياناً.

وفي ذلك تأكيد على علة وحكمة النزول مفرقاً، وهو أن القرآن الكريم كان في نزوله يتفاعل مع أحداث الدعوة الإسلامية وما يثار عليها من اعتراضات أو أسئلة أو ردود، طوال تاريخ البعثة المحمدية، سواءٌ في مكة أو في المدينة، وسواء من الذين كفروا من قريشٍ أو مع كفار أهل الكتاب أو مع المشركين، أو غيرهم، وقد كان القرآن الكريم يتفاعل ويجيب على أسئلة المسلمين واستفساراتهم، أي أن القرآن الكريم كان يتفاعل

في نزوله مع الواقع، وكان الواقع هو سبب نزوله أو مناسبته، سواءٌ أكان هذا الواقع سبباً عاماً أم خاصاً، وأن القرآن الكريم تفاعل مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتدرج بها فكرةً بعد فكرةٍ وحكمةً بعد حكمةٍ ونهياً بعد نهي حتى اكتمال الدين وإتمام النعمة، قبيل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

ولا بدَّ أن نجد في احتفاظ القرآن الكريم بما اعتُرض عليه من قِبَلِ الذين كفروا بشأن طريقة التنزيل، ثم الاحتفاظ بالجواب عليهم بآياتٍ كريمةٍ من القرآن الكريم تتلى ويتعبد بها في الصلاة إلى يوم الدين، لابدَّ أن نجد أهميةً كبرى، وذلك لأنها تكشف عن أمورٍ هامةٍ منها:

أولاً - تكشف عن المنهج التاريخي الذي نزل به القرآن الكريم، وهو المنهج الذي جمع بين نزول القرآن مفرقاً ومتزامناً مع السيرة النبوية وتاريخ الدعوة الإسلامية في العهد النبوي.

ثانياً - ترشد إلى المنهج الواقعيِّ في تفاعل نزول القرآن الكريم مع الأحداث، وهو الربط بين تاريخ النزول والوقائع التي كان القرآن الكريم يعالجها، فالتنزيل تفاعل مع الواقع اليومي الذي عاشته الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة، وكان تفاعله مع المناسبات والأسباب الزمنية والتاريخية.

ثالثاً - تدعو إلى تحقيق أهداف هذا المنهج التاريخي الواقعي، وهو تحقيق التثبيت للنبيِّ عليه الصلاة والسلام.

رابعاً - تعليم المؤمنين المنهج التاريخي والواقعي والتثبيتي، وأنه المنهج القادر على كشف حقائق التنزيل، وأنه منهج تدبر للقرآن الكريم من الذين آمنوا، وهدىً وبشرى للمسلمين.

هذه المعاني لا بد من التذكير بها، والسعي لوضع مناهج علمية تساعد الباحث على تحقيق أهداف نزول القرآن مفرَّقاً، وهذا ما قصدناه من كتاب علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، وهو التذكير بهذا المنهج القرآني في تدبر القرآن الكريم مفرقاً كما أنزل، وقد اجتهدنا في وضع قواعد لهذا العلم، وبيان مصادره وجذوره الأصلية في العلوم الإسلامية، وبخاصةٍ في كتب علوم القرآن الكريم.

لقد كان الهدف من بناء هذا العلم أن يُوحّد بين علوم القرآن وبالأخص المباحث التاريخية منها، ولذا اجتهدنا في التأكيد على أهمية معرفة تاريخ النزول للآية أو السورة، وكانت دعوتنا إلى اعتماد المنهج التاريخي في النزول، بقصد تحقيق التثبيت في الإيمان والعمل الصالح، فالربط بين تاريخ النزول وموضوعاته هو المنهج الذي نجد فيه القدرة على فهم القرآن فهماً قويماً.

وإثر حوارات مع إخوة كرام، تبين لنا أن هناك حاجةً للحديث عن إحدى النتائج العلمية التي كنا نأمل أن يتوصل إليها القراء بأنفسهم، أي من خلال قراءتهم لكتاب "علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره"، دون أن نجعلها في كتابٍ مستقلٍّ، لأنها نتيجة طبيعية لعلم المناسبة الذي فصلنا فيه القول وجعلنا له ثلاثة أنواع هي: المناسبة التنزيلية والمناسبة التاريخية والمناسبة الموضوعية.

وكنّا نأمل من تأصيل علم المناسبة التعرف على هذه الأنواع الثلاثة، على الوحدة التاريخية للسور القرآنية وبالأخص من المناسبة التنزيلية والتي عرفت بأنها: اقترانُ الآية بما قبلها وما بعدها في السورة الواحدة بعلاقةٍ تربطهما في سياق النزول[1]، وأما المناسبة التاريخية: فهي: موضع ذكر الآية مقرونة بالحدث التاريخي في السيرة النبوية، ومعرفة تاريخ نزول الآية أو السورة من معرفة تاريخ نزول آيةٍ أخرى نزلت قبلها أو بعدها، فإذا علم تاريخ نزول آيةٍ ما فإن تاريخ نزول الآيات التي معها في نفس السياق والسورة هو نفس تاريخها، إلا إذا وجد لآيةٍ منها تاريخ نزول آخر ثابت بنفس الدرجة أو أقوى من التاريخ الأول، وقلنا إن المناسبة التنزيلية تلتقي مع المناسبة التاريخية في سياق النزول في السورة الواحدة وفي سياق الحدث التاريخي للقصة الواحدة[2].

إنّ هذا يعني بالضرورة وجود وحدة تاريخية للسور القرآنية، فلكلّ سورةٍ قرآنيةٍ مدةٌ زمنيةٌ تاريخيةٌ نزلت فيها بحكم المناسبات التاريخية والتنزيلية، وكنا نأمل أن يتواصل بحث غيرنا في هذا الاتجاه التاريخي التفسيري، حتى تكتمل صورته

---

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، ص 134.

(2) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، ص 135 و 136.

وتتجلى معالمه، إلا أن بعضاً يعترِض على التفسير التاريخي بحجج واهيةٍ من أضعفها ظنهم أنه يهدف إلى إعادة ترتيب المصحف بحسب النزول، وليس الأمر كذلك إطلاقاً، والأغرب من ذلك أن يعترض عليه بنفس الحجة التي يقوم عليها منهج التفسير التاريخي، وهي حجة نزول القرآن مفرقاً، فظنوا أن نزول القرآن مفرقاً يلغي الوحدة التاريخية للسور القرآنية؛ دون أن يقيموا على دعواهم برهاناً صحيحاً كما سيأتي، فكان لا بدَّ من بيان المعنى الأصلي لنزول القرآن مفرقاً، وأنه قائم على الوحدة التاريخية لنزول آيات السورة القرآنية الواحدة، وأن نزول القرآن مفرقاً لا يتنافى مع الوحدة التاريخية ولا مع علم ترتيب النزول.

ويكفي للردِّ على ذلك: الإجماع على معرفة الوحدة التاريخية لنزول القرآن الكريم كله، وهو المدة الزمنية الكلية التي نزل بها القرآن الكريم على النبي عليه الصلاة والسلام، وهي ثلاثة وعشرون عاماً تقريباً، فإذا كانت الوحدة التاريخية للقرآن كله معروفةً ومتفقاً عليها، أفلا يمكن معرفة الوحدة التاريخية لكل سورةٍ قرآنيةٍ بمفردها، وهي متضمَّنةٌ في الوحدة التاريخية للقرآن كله؟

أي أن هدفنا من هذا الكتاب هو مواصلة النظر في بيان المنهج التاريخي لتفسير القرآن الكريم في إحدى قضاياه الهامة وهي الوحدة التاريخية في السور القرآنية، وقد شجعنا على ذلك نصائح إخوة لنا، تدعو إلى بيان الأثر العملي لعلم تاريخ النزول وبيان أثر المنهجية التاريخية في تجديد تفسير القرآن كله أو بعضٍ من سوره، أما وقد تأكدت الحاجة لدينا إلى مواصلة البحث والنظر في قواعد هذا المنهج، والأخذ بالنصائح، فإننا نفضل أيضاً التعليق على بعض الإشكالات التي قد تنتج عن سوء فهمٍ لما ندعو إليه، ولكن المهمة الأصلية هي التركيز على إحدى قضايا علم تاريخ النزول الهامة، وهي الوحدة التاريخية في تفسير السور القرآنية، وبيان أثر هذه الوحدة التاريخية في تفسير القرآن كله، وكأنه وحدة موضوعية واحدة منتظمة مع بعضها بعضاً، ومنسجمة ومتجانسة مع السيرة النبوية المكية والمدنية.

ونحن هنا نذكر أننا نُفضّل أن يوصف الاجتهاد في هذا الموضوع أو غيره بالنظرية، اشتقاقاً من كلمة النظر بمعنى التفكر والتدبر، وحبذا لو أخذ المسلمون بهذه المنهجية المعرفية، فكل اجتهادٍ هو فكرٌ إسلامي، وكل فكرٍ إسلامي هو نظريةٌ، وكلُّ

نظريةٍ هي فكرٌ إسلاميٌّ، وهو غير القرآن الكريم، وغير الدين الإسلامي الذي يشملُ القرآنَ وبيانَه النبويَّ فقط، فعلوم القرآن هي علومٌ اجتهاديةٌ مستنبطةٌ أو متعلقةٌ بالقرآن الكريم لم يأت النص عليها والتصنيف فيها من القرآن ولا من النبي عليه الصلاة والسلام، وعناوين علوم القرآن محل اجتهاد العلماء في الماضي والحاضر والمستقبل، وهي بحاجةٍ إلى التجديد المستمر فيها، بما يجعل القرآن الكريم هدىً للناس إلى يوم الدين.

ولا يمنعُ من استعمال كلمة النظرية أن معناها في المجالات العلمية الطبية والفيزيائية أو غيرها يقع على مكتشفاتٍ علميةٍ متغيرةٍ ومتجددةٍ، لا يمنع ذلك من أن تستعمل هذه الكلمة في الثقافة الإسلامية، لأن محل استعمالها هو في العلوم الإسلامية المتعلقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وهذه العلوم هي من اجتهادات علماء المسلمين، وتنسب إليهم وإلى عصورهم ومذاهبهم، والاجتهاد الإسلامي ليس معصوماً ولا مطلق الصواب مثل الوحي الإلهي، فلا يوصف القرآن نفسه بالنظرية، ولا يوصف البيان النبوي بالنظرية، وأما اجتهاد علماء المسلمين فمن الجائز أن يوصف بالنظرية لأنه تفكيرٌ ونظرٌ منهم في فهم المسائل من القرآن الكريم وبيانه النبوي، سواء كان في وضع المناهج والأصول البحثية أو في نتائجها الفكرية أو الفقهية أو غيرها.

والدليل العملي على صحة هذا القول أن لعلماء علوم القرآن الكريم أكثرَ من قول في المسألة الواحدة أحياناً، ومنها عملية جمع القرآن الكريم، ولصلة هذه المسألة بموضوع هذا الكتاب، فقد جعل الباب الأول في دراسة عمليات جمع القرآن الكريم، حتى يكون بيان قولنا في هذه المسألة متقدماً على كل قولٍ لاحقٍ، وحتى يتأكد لكلِّ أحدٍ أن مسعى هذا الكتاب هو الانتصار لكلِّ علمٍ صحيحٍ عن القرآن الكريم، ونفيُ كلِّ شبهةٍ أو مقولةٍ باطلةٍ.

ولذا فإن موضوع "نظرية الوحدة التاريخية للسور القرآنية" له هدفٌ واحدٌ هو التجديد في تدبر وتفسير وتأويل وفقه القرآن الكريم، ولا يهدف إلى غير ذلك، وليس ما قد يفهم خطأً من أن المنهج التاريخي لفهم القرآن الكريم يدعو إلى تغيير

ترتيب المصحف أو ترتيب الآيات في السور القرآنية، أو إلى تشتُّت النزول أو غيرها من المقولات الباطلة، فهذه كلها أفكار خاطئة لم نَدْعُ إليها أولاً، ويخطئ من ينسبها إلى هذا العلم ثانياً، بل هي من الأفكار التي تعارض أسُس علم تاريخ النزول.

وزيادةً في التوضيح جعلنا الكتاب في قسمين، الأول: في بيان نظرية الوحدة التاريخية وأثرها في تفسير السور القرآنية، وفيه دراسة عن النظريات العلمية في توثيق النص القرآني، فجاء الباب الأول في بيان معنى جمع القرآن الذي نعتقده، وبيان الفارق بين جمع القرآن الكريم الذي تولاه المولى عز وجل بنفسه، وبين جمعه الذي تولاه النبي عليه الصلاة والسلام ثم جمع خيرة الأمم في الخلافة الراشدة، وذلك للتفريق بين جمع القرآن من المنزل له وهو الله تبارك وتعالى، وجمع المصحف من المنزل عليهم وهم العباد الصالحون، وفي نفس الباب دعوة إلى التجديد في علوم القرآن الكريم، ثم كان الباب الثاني في بيان معنى التفسير التاريخي الذي ندعو له، ونفي الشبه عنه، وبيان مفهوم نظرية الوحدة التاريخية في السور القرآنية، والصلة التكاملية بينها وبين الوحدة الموضوعية.

وفي القسم الثاني تطبيق لهذا المنهج التاريخي على إحدى السور القرآنية، ووقع الاختيار على سورة الأحزاب المدنية، ونأمل أن يتواصل البحث في سور أخرى مكية ومدنية حتى يشملها جميعاً إن شاء الله تعالى.

غفر الله لنا ولمن قرأ بإخلاص ما نكتب، سواء وافقنا أم خالفنا، حاورنا أم شاورنا أم اعترَض على شيء مما قدمنا، فمن قصد بعلمه وجه الله تعالى فهو في عبادة علمية، وله ثواب عبادته بإذن الله تعالى، نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل؛ والحمد لله رب العالمين.

عمران سميح نزال